مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين، الجنِّ والإنس، آمراً له أن يُخبرَ الناسَ أن هذه سبيله: أي طريقه ومسلكه وسُنَّته، وهي الدعوةُ إلى « شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له » يدعو إلى الله على بصيرةٍ من ذلك ويقينٍ وبرهان هو وكُلُّ مَن اتَّبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسولُ الله ﷺ على بصيرةٍ ويقينٍ وبرهانٍ عقلي وشرعي. وقوله: ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: وأُنزِّه الله وأُجلّه وأُعظّمه وأُقدِّسه عن أن يكون له شريكٌ أو نظيرٌ أو عَديلٌ أو نَديدٌ أو ولدٌ أو صاحبةٌ أو وزيرٌ أو مشيرٌ. تبارك وتقدَّس وتنـــزَّه وتعالى عن ذلك كُلِّه عُلُواً كبيراً.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: ذاك ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ

(١) يوسف: ١٠٨.
(٢) الإسراء: ٤٤.

﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

بلاغٌ للناس جميعاً، بل للجنِّ والإنس، ولا عُذْرَ بعد بلاغٍ، ولا حُجَّةَ بعد إعذارٍ وإنذارٍ ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ أدعو إلى الله، لا إلى غيره، على بصيرةٍ ويقينٍ وبرهانٍ. وذاك ما دعا الرسول ﷺ إليه، ووصَّى الله به، وجعل الفوزَ والفلاح فيه، لا في غيره.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٢)

روى مسلمٌ، عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » (٣)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ

---

(١) النساء: ١١٥.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ رقم ٢١٨.

﴿ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١)

دعوةٌ إلى الناس كافَّة، يُدعَى إليها على بصيرةٍ ويقينٍ وبُرهانٍ، بعث الله من أجلها الرسلَ جميعاً بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتابَ والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط، فلا غموضَ ولا خفاء. فما يدعو الرسول ﷺ والمؤمنون معه هو ما دعى إليه الأنبياءُ جميعاً، وأقاموه ولم يتفرَّقوا فيه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)، ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (٣)

إن الدعوةَ إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دعوةٌ إلى الحقِّ الذي قامت به السمواتُ والأرض. دعوةٌ إلى الكلمة الطيبة التي تُؤتي ثمارَها كُلَّ حين استقامةً وعدلاً، ورحمةً وبرًّا.. بها يلتقي الناسُ على كلمة سواء، فلا يعبدون إلاَّ اللهَ مُخلصين له الدين حُنفاء، لا يستعينون إلاَّ به، ولا يتوكَّلون إلاَّ عليه، ولا يَرَوْنَ لأنفسهم - في بأساءَ أو ضرَّاءَ - ملجأً إلاَّ إليه.

إن اليقينَ بهذه الشهادة، واتِّباع ما تُوحي طُهْرٌ للنفسِ من الشرك والرِّياء والنفاق، وحصانةٌ لها من اتِّباع الهوى والفساد، وعزَّةٌ تسمو بصاحبها عن الدنايا وسيءِ الأخلاق.

---

(١) الأعراف: ١٥٨.
(٢) الأنبياء: ٢٥.
(٣) الشورى: من الآية ١٣.

« شهادة أن لا إله إلا الله » التي يدعو إليها رُسُلُ الله جميعاً، والتي أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن يُخبِرَ الناسَ أنها طريقه وسُنَّته، وأنه يدعو بها إلى الله على بصيرةٍ ويقينٍ، جديرةٌ أن يُعْنَى بها الدعاةُ إلى الله في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ إذ لا استقامة تُرجَى، ولا صلاحَ لحالٍ يُطْلَبُ بغيرِ صلاح النفوس وهدايتها؛ فالنفوسُ الصالحة تصلحُ بها الأمور الفاسدة، والنفوس الفاسدة تفسد بها الأمور الصالحة، فالإنسان أوَّلاً ومن أجله جاءت الهدايةُ، وفُطِرَ على هذه الشهادة، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وبُعِثَ الرسلُ الكرامُ مُبشِّرين مَن تمسَّكَ بها وأخلصَ لها، ومُنذِرين مَن جحدها أو تنكَّرَ لها.

ولا مبالغةَ في شيء إذا قُلنا: إن كُلَّ ظُلمٍ أو فسادٍ في الأرض مَرجعه إلى التنكُّر لهذه الحقيقة؛ فإنَّ مَن عَرَفَ ربَّه خَشِيَهُ، ومَن خَشِيَ اللهَ كَفَّ شَرَّه وقدَّم خَيرَهُ، وهو يوقِنُ أنه راجعٌ إليه، ومُحاسَبٌ بين يديه، فلا ينشد لنفسه في دُنياه إلا ما أحلَّ الله له، أمَّا الحرام فالمماتُ دونه.

وعندئذٍ تُصانُ الضوابط والحدود، ويكون للإنسان من نفسه رادع، وله من خشية ربِّه زاجر، فهو يشهد أن لا إله إلا الله في كُلِّ شأنٍ من شئونه، فلا يذل أو يضل، أو يفسد أو يسيء، وشهادته له نورٌ ويقينٌ وبرهانٌ، وعلمه بها علمٌ يدعوه إلى ملازمة الإنابة والاستغفار بقلبٍ وَجِلٍ، ونفسٍ خاشعةٍ، تخشى اللهَ وترجو رحمتَه.

ولا تَسَل عمَّا يكون من أَمْنِ الناس وسلامِهم مع هذه النفوس، ولا تَسَل عمَّا يكون في حياتِهم من عدلٍ وبِرٍّ.

إن ثمارَ الدعوة إلى هذه الشهادة – في دُنيا الناس وأُخراهم – أكبر من أن تُحصَى أو تُعَدُّ. ومَن كانت هذه سبيلُه طَهُرَ سعيُه، وعَظُمَ أجرُه، وعلا ذِكْرُه، وسَلِمَ من لوثةِ الشرك، وظلامِ الإفك.